المحاضرة السادسة (06): آليات الفهم والإنتاج وثنائية الكتابة والقراءة

لقد قدّمت اللسانيات النفسية صياغة لعدة نظريات تتمحور حول ضبط آليات فهم وإنتاج النصوص وفهمها، وقد تركز الاهتمام على دور الذاكرة باعتبارها تختزن المعارف القديمة على شكل بنيات معطاة تمثل أوضاعا متكررة، هي مصادرنا التي نستقي منها ما به نواجه لأول مرة، وضعيات جديدة في عمليتي القراءة والكتابة على حدّ سواء، ولعلّ ما يحرّك هذا الخزان هو الملائمة بين القديم المخزن والحادث الطارئ، إذ يعتمد قارئ النص على تجاربه السابقة، ويراكم عاداته في التحليل والفهم من أجل اكتشاف الثوابت والمتغيرات النصية التي تقود إلى معنى مناسب.

يعدّ التأويل شكلا من أشكال المعنى المناسب عن طريق الاعتماد على:

- مبدأ التشابه
- الخصائص النوعية للجنس الأدبي التي نادرا ما يلحقها التغيير.
- التداعي.

إنّ النص كلما كان متوقعا أي منسجما مع النماذج التي يعرفها القارئ ظهر واضحا، وإذا ما ظهرت بعض الدلالات غير المتوقعة يحدث ما يسمى بالمفعول الارتجاجي، أي إعادة صياغة وتصحيح ما تمّ إدراكه سابقا، فالقراءة اكتشاف للجديد تقتضي تحريرا للمخيّلة من أسر الذاكرة والموروث.

القراءة/ الكتابة:

يخوض الكاتب معركة داخل ساحل اللغة باعتبارها موروثا فكريا يسعى من خلاله إلى تشكيل تفرّده، فأمامه تجربته الخاصة والمعطيات الواقعة (سطوة الموروث)، ذلك أن الكاتب قبل أن يكتب كان قارئا لنصوص غيره، ومستهلكا لمنتوج الثقافة ككلّ، "فهو تعدّدية مكونة من نصوص أخرى، ومن شفرات لا محدودة. إنّه تعدّدية ضائعة أو أصلها مفقود." إذا هناك علاقة تداخل بين عمليتي القراءة والكتابة لذلك قيل: "إن النص ينكتب وهو يقرأ"، فالقارئ مشارك في كتابة النص.

لقد ساهمت المناهج البنيوية والسيميائية والتفكيكية في الاتجاه بالنص إلى نحو تشتيت المعنى وربط مصيره بقراء يختلفون في الزمن والميول. وقد ركزت هذه المناهج أو النظريات على دور التناص في خلق لا نهائية التّدلال أو تعدديته. وسعى باختين من قبل – بإثبات حياد الكاتب – إلى تأكيد السلطة المطلقة للقارئ في التأويل، ولقد أصبحت القراءة في الدلالة المعاصرة جهازا فكريا ونظاما معرفيا له آلياته وقواعده وشروطه؛ شأنها شأن التأويل والهيرمينوطيقا مما جعل بعضهم يدعو إلى تأسيس نظرية في القراءة.

يعدّ النص إذن، خزانا لمعانٍ بعضها من المؤلف وبعضها من النص وبعضها من الذات التي تقرأ وتؤوّل. يقول لوران جيني: "النص هو ملتقى الكاتب بالقارئ، وهو الفضاء الحواري بالقوة، وهو موضع التبادل الذي لم يستوف فيه الكاتب كل كلامه، ولم ينته القارئ فيه إلى فهم كل شيء، ولم يستكمل النص فيه إنتاج كل شيء". ومن هنا تصبح القراءة فعلا إنتاجيا (إنتاج الدلالة)، فإذا كانت القراءة بحثا عن المعنى وتأويل له فهي - حسب بارت - لذة وإنتاج لدلالة النص.